بلاغة الصورة الاستعارية في الكلام النبوي

محمد إبراهيم خليفة شوشتري
أستاذ مشارك بـــجامعة الشهيد بـــهشتـــي
علي اكبر نورسيده*
أستاذ مساعدبـــجامعة الشهيد بـــهشتـــي
(٢٦٠ -٢٣٩)
تاريخ الاستلام: ٩١/١٠/٢٥؛ تاريخ القبول: ٩٢/١٢/١٤

الـــملخّص
كان رسول الله (ص) رأس الفصاحة، و مجمع البلاغة، و ذروة البيان وكان يـــخاطب العرب بلهجاتهم على اختلاف قبائلهم. فقد قام الكاتبان لأداء حق الكلام في هذا الـــمقال بدراسة الاستعارة في كلام النبي الـــمرسل(ص) لتبيين نبذة من بلاغته و فصاحته. هذا الـــمقال يلقي الضوء على فن الاستعارة و مظاهرها فى الكلام النبوي. والطريق في هذا العمل هو الإفصاح عن البيان النبوي عبر تقديم الأمثلة الـــمتعددة فى الاستعارة، والعرض الـــمفصل لفن الاستعارة، وفصولها الـــمتنوعة، وظهورها عند أفضل من نطق بالضاد. وقد اعتمدنا عددا من الـــمصادر البلاغية خلال الـــحديث عن بعض فنون الاستعارة، و ذلك أملاً أن يأخذ هذا الـــمقال مكانه بين مراجع البيان النبوي الذي تناثر الـــحديث عنه في بطون الكتب القديمة. فما حصل عليه هو إثبات سيادة النبي(ص) في البيان بشكل تطبيقي عملي وإظهار هذا الأمر.

الكلمات الدليلية: الاستعارة، أقسام الاستعارة، البيان النبوي (ص)، مظاهر الاستعارة.

---

* البريد الإلكتروني للكاتب المسؤول: noresideali@gmail.com

المقدمة

كانت بلاغة النبي(ص) مضرب المثل وحديث الناس وموضع الدهش ومحل الإعجاب من كل من سمعه وأنصت إلى ألفاظه وأصغى إلى معانيه، تطلّ منها أروع الحكم وتنبجس من خلالها أجمع الأمثال. إنّ أحاديث رسول الله(ص) لم تقف عند حدود ما تعارف عليه معاصروه – وهم من صفوة البلغاء وزبدة الفصحاء – وإنما امتدّت على مساحة الأرض والزمان كنزاً ذاخراً للبلاغة، ومعيناً لا ينضبُ من البيان. حين نتحدث عن الصور البيانية في أدب النبي(ص)، إنما نتحدث عن لون من ألوان الإبداع النبوي والذى جاء على أكمل وجهه، وبه ارتفع أسلوبه إلى منزلة لم يبلغها أديب في العربية. لن نرسل القول دون دليل، فإن المتتبّع للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تنجذب إليه النفوس من القول، ولما فطر عليه(ص) من معرفة عناصر التأثير في البيان، وأوجه الجمال في اللسان، فجاء حديثه من البلاغة العالمية في موضع تتطلّع نحوه الأبصار، وتتقاصر دونه الأعناق.

هناك دراسات متعددة عن البلاغة النبوية قد ظهرت على يد علماء البلاغة قديما وحديثاً، فيمكن الإشارة إلى: "الجاحظ" (ت ٢٥٥هـ)؛ الذى أتى فى كتابه "البيان و التبيين" بنماذج من أحاديثه(ص)، وقارن بينها وبين أقوال بعض الشعراء، مقرّراً من خلال ذلك فضل كلامه(ص) على كلام غيره من البشر. وكثيراً ما يورد الأحاديث دون أن يعلّق عليها، ودون أن يشير إلى أنّ الاستعارة هادفة. وقد انتقده أحد الباحثين لإيراد بعض الأحاديث الموضوعة، وقال:«وقد لاحظتُ أنّ عدداً من هذه الأحاديث غير صحيحة، بل قد ذكر العلماء أن بعضها من الموضوعات». (الصباغ،١٩٨٣م: ١٨) هذا ممّا يؤخذ على الجاحظ، وعلى عدد من علماء التفسير والدين والأدب الذين ذكروا بعض الأحاديث الموضوعة في كتبهم، دون أن يتثبتوا من صحّتها.

و"الشّريف الرّضي" (ت٤٠٦هـ)؛ الذى يعدّ كتابه (المجازات النبوية) محاولة رائدة لدراسة الأحاديث النبوية من الوجهة البيانية، ويمتاز بسهولة العبارة، والإيجاز، فقد استعمل بعض المصطلحات البيانية مثل: التشبيه والمجاز، والاستعارة، والكناية دون التعرض لما يدخل تحت كلّ مصطلح من المصطلحات السابقة من أقسام، وكان يستحسن بعض الأنواع البيانية مثل الاستعارة، فيقول عند استعراضها:« ومن ذلك قوله عليه وآله الصلاة والسلام: في حديث يذكر فيه ظروف الساعة:«**فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقِيءُ الأَرْضُ أَفلاَذَ كَبِدِهَا**» وهذه

من الاستعارة العجيبة؛ لأنّه عليه وآله الصلاة والسّلام شبّه الكنوز التي استودعتها بطون الأرض بأفلاذ الكبد، وهي شعبها وقطعها؛ لأنّ شعب الكبد من شرائف الأعضاء الرئيسة، فذلك الكنوز من جواهر الأرض النفيسة، ولـــما شبّهها عليه وآله الصلاة والسّلام بأفلاذ الكبد من الوجه الذي ذكرناه، جعل الأرض عند إخراجها كأنّها تقيأت ودسعت[1] بـــما استودعته منها.» (الشريف الرضي،١٣٩١هـــ: ٢٠٤) وخلاصة القول: إنّ الشّريف الرّضي عنى بالـــجانب البياني في الـــحديث النبوي من ناحية الـــمجاز خاصة، ولم يتناول بقية الـــجوانب البيانية تناولاً واسعاً، كما أنّ الـــمصطلحات البيانية عنده عامة، ومتداخلة أحياناً؛ لأنّ علم البيان لم يدوّن حتّى ذلك الوقت بقواعد منظّمة.

و"ابن رشيق القيرواني" (ت٤٦٣هـــ)؛ الذى استشهد في كتابه "العُمْدَة" بكلام النبي(ص) على القواعد التي وضعها، ولم يكن يعمد إلى تحليل النّص ودراسته بيانياً، وإنّما كان كلامه موجزاً، وقد امتدح بيان النبي(ص). وفي بداية كلامه في باب البلاغة بدأ بكلام النبي(ص) ثمّ ثنّى بكلام غيره، ممّا يدلّ على تعظيمه للبيان النبوي قال:« تكلّم رجل عند النبي(ص) فقال له النبي(ص): «كَمْ دُونَ لِسَانكَ مِنْ حِجَاب»؟ فقال: شفتاي وأسناني. فقال له(ص):«**إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ الإِبْغَاقَ فِي الكَلاَمِ، فَنَضَّرَ اللهُ رَجُلاً أَوجَزَ فِي كَلاَمِهِ وَاقتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ**». سئل رسول اللّه(ص) فيم الـــجمال؟ فقال:«فِي اللِّسَانِ»، يريد البيان». (القيرواني، ١٩٨٣م: ١/١٦٧-١٦٨).

و"عبدالقاهرالـــجرجاني" (ت٤٧١هـــ)؛ الذى استشهد بالـــحديث النبوي، قد أتى بأحاديث كثيرة في كتابه "أسرار البلاغة". وأمّا أحاديث كتابه "دلائل الإعجاز" فقليلة. ومن الأحاديث التي أوردها قوله(ص): «**النَّاسُ كَإِبِلِ مِائَةٍ لاَ تَجِدُ فِيهِم رَاحِلَةً**». وعقّب عليه بقوله: «لابدّ فيه من الـــمحافظة على ذكر الـــمشبه به الذي هو الإبل، فلو قلت: (الناس لا تـــجد فيها راحلة) أو (الناس لا تجد في الناس راحلة) كان ظاهر التعسّف». (الـــجرجاني،١٤٠٣هـــ: ١٠٠-١٠١) والـــخلاصة: إنّ عبد القاهر كان يستشهد بالـــحديث النبوي في تقريره للقواعد البلاغية التي وضعها، وقد كانت شواهده من الشعر أكثر من شواهده من الـــحديث.

و"ضياءالدين بن الأثير" (ت٦٢٢هـــ)؛ الذى استشهد في كتابه "الـــمثل الســـائر في أدب الكاتب و الشاعر" بالـــحديث النبوي كثيراً، واعتبر أنّ الـــحديث النبوي هو آلة مـــن آلات علم البيان. وهي عنده ثـــمانٍ، فقال :«النوع السابع:حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي(ص) والسلوك بـــها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال». (ابن الأثير، د.ت:٢/٤٠-٤١)

فقد قسّم التشبيه إلى أربعة أقسام، ومنها تشبيه مركب بمركب، وقال فيه: «وأمّا القسم الثّاني وهو تشبيه المركب بالمركب، فممّا جاء منه مضمر الأداة ما يروى عن النبي(ص) في حديث يشتمل على فضائل أعمال متعددة، ولا حاجة إلى إيراده ههنا على نصّه، بل نذكر الغرض منه، وهو أنّه قال له رسول الله(ص):« **أَمْسِكْ عَلَيكَ هَـذَا**» وأشار إلى لسانه، فقيل له: أَوَ نحن مؤاخذون بما نتكلّم به؟ فقال(ص): «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا رَجُلُ! وَ هَل يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِم فِي نَارِ جَهَنَّمَ إلاَّ حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ**». فقوله(ص) «**حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ**» من تشبيه المركب بالمركب، فإنّه (ص) شبّه الألسنة وما تمضي فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض». (ابن الأثير، ٢/٤٠-٤١) وقد ذهب محمد الصباغ إلى أنّ ابن الأثير «من أكثر المتقدمين ضرباً للأمثلة من الحديث في كتابه المذكور». (الصباغ،١٩٨٣م: ٥٥)

و"يحيى بن حمزة العلوي" (ت٧٤٥هـ)؛ أشار العلوي إلى فضيلة البيان، وقال: الفضيلة الأولى: أنّ الرسول(ص) مع ما أعطاه الله من العلوم الدينية، وخصّه بالحكم والآداب الدنيوية فلم يفتخر بشيء من ذلك، فلم يقل (أنا أفقه الناس) ولا (أنا أعلم الخلق بالحساب والطّب)، بل افتخر بما أعطاه الله من علم الفصاحة والبلاغة، فقال(ص): «**أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ**». (العلوي؛ ١٩٩٥م: ٣٢-٣٣) وقد أتى العلوي بطائفة من الأحاديث النبوية التي استشهد بها على القواعد البلاغية التي وضعها في كتابه، كما تحدّث عن فضيلة البيان النبوي، فقال:« فإنّ كلامه (ص) وإن كان نازلاً عن فصاحة القرآن وبلاغته، في الطبقة العليا حيث لا يدانيه كلام، ولا يقاربه وإن انتظم أيّ انتظام». (المصدر نفسه:١٦٠) نفترض أن تكون الاستعارات المستخدمة في البيان النبوي الشريف هادفة لترسيخ الكلام و إلقائه في بال المتلقين من العرب و المسلمين؛ عسى أن يقع الكلام موضعاً أفضل من الكلام المعتاد. وما قمنا به هو دراسة مختصرة لصور الاستعارة في الكلام النبوي حتى نقدّم على قدر استطاعتنا نبذة من البلاغة النبوية. وقد التزمنا بجمع الشواهد البيانية، وتحققنا من صحة النصوص، ثم قسّمناها إلى موضوعات، ودرسنا كل موضوع، وقد ذكرنا نصّ الأحاديث النبوية أو بعض ما يتعلّق منها بالفن الاستعارى، وذكرنا مواضع الأحاديث في "مشكاة المصابيح" وعرضنا الأحاديث مرتبة حسب ترتيبها فيما يتعلق بالجانب البياني، فقد عرضنا كلامه (ص)، وقمنا بشرح بعض المفردات اللغوية الغريبة، وأحلنا بعض الشواهد

الاستعارية إلى أماكنها في الدواوين الشعرية، أو الكتب البلاغية، ما أمكن ذلك. ثمّ رجعنا إلى عدد من المصادر البلاغية خلال الحديث عن بعض فنون البيان والاستعارة. وقد قدّمنا نماذج من الاستعارة، أملاً أن يكون هذا المقال مرجعاً في البيان النبوي الذي تناثر الحديث عنه في بطون الكتب القديمة، بينما استبعد بعض المعاصرين المصطلحات البيانية خلال دراستهم للبيان العربي عموماً، ومنه البيان النبوي. فنحن في هذه الدراسة نستعرض تعريفاً للاستعارة عند البلاغيين الجدد والقدامى، ونبرز خطوطها العريضة، ثم نستخرج الشواهد الاستعارية في الكلام النبوي، ونشرحها وفقا لما وجدنا فيها من الصور البلاغية. هذه هي أبرز الأفكار العامة في منهج المقالة.

نظرا إلى ما أشرنا إليه تتطلب القضية هذه بحثا دقيقا في الصورة الاستعارية في الكلام النبوي لعرض بلاغته المنبعثة من القرآن والوحى. وضرورة هذا البحث ترجع إلى فقد بحث يعطي القارئ الكريم صورة واضحة عن الاستعارة في الحديث الشريف، ويجيب عن السؤال التالي:

هل كان الرسول الأعظم(ص) ينطق بالاستعارة لأجل البلاغة فقط، أو أنّ استعاراته(ص) كانت هادفة، يستخدمها للأهداف السامية كالموعظة الحسنة، وتقوية العقيدة الإسلامية.

ونودّ الإشارة إلى أنّ سبب أخذنا الأحاديث المنتخبة لهذا المقال من كتاب(مشكاة المصابيح) للخطيب التبريزي هو أنّ هذا الكتاب قد جمع الأحاديث المشتملة على الموارد البلاغية كالاستعارة مثلاً. ولا شكّ أنّ الخطيب التبريزي هو عالم وراوٍ، فلا يروي إلاّ ما صحّ من الأحاديث، علماً بأنّنا قد رجعنا إلى كتب الحديث المعتبرة للتثبيت من صحّة الأحاديث المذكورة.

الاستعارة

تتصدر الاستعارة بشكل كبير بنية الكلام الإنساني، إذ تعدّ عاملا رئيساً في الحفز والحثّ، و أداة تعبيرية، ومصدراً للترادف وتعدد المعنى ومتنفساً للعواطف والمشاعر الانفعالية الحادة، و وسيلة لملء الفراغات في المصطلحات. إنّ الاستعارة لابدّ أن تتحوّل إلى شكل يماثل التشبيه حتّى يتمّ فهمها. وهي التي تعطي قبل كلّ شيء الجلاء والمتعة وجودا غريبا، ويجب أن تكون مناسبة وغير بعيدة عن الأذهان. ويجدر الذكر

أنّ الانحراف عن التعبير هو مظهر ثانوي للاستعارة، و المظهر الأساسي هو أنّ الاستعارة تنتج أنواعاً من الاستعمالات اللغوية التي تدعو القارىء لاكتشاف أنواع معينة من ترابط الأفكار وتداعيها، وهذه هي قلب اللغة الاستعارية. «إن العامل في تأثير الاستعارة هو المسافة بين المشبه والمشبه به، أوكما يقول سايس: زاوية الخيال». (أبوالعدوس، ١٩٩٧م: ١١).

الاستعارة وفقا للنظرية الاستبدالية «هي علاقة لغوية تقوم على المقارنة، شأنها في ذلک شأن التشبيه ولكنها تتمايز عنه بأنها تعتمد على الاستبدال، أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة، أي إنّ المعنى لا يقدم فيها بطريقة مباشرة، بل يقارن أو يستبدل بغيره على أساس من التشابه. ووفقاً للنظرية السياقية؛ الاستعارة عملية خلق جديد في اللغة، ولغة داخل اللغة، فيما تقيمه من علاقات جديدة بين الكلمات. ووفقاً للنظرية التفاعلية هي تتجاوز الاقتصار على كلمة واحدة، و تحصل من التفاعل أو التوتر بين بؤرة المجاز، والإطار المحيط بها، وتبين هذه النظرية أنّ للاستعارة هدفاً جمالياً وتشخيصياً وتجسيدياً وتخييلياً وعاطفياً». (المصدر نفسه: ٧-٨).

والاستعارة إحدى أنواع المجاز، وهي «مجاز تكون علاقته المشابهة، أي قصد أنّ الإطلاق بسبب المشابهة». (التفتازاني، ١٤٢٥هـ:٣٤١) فقد عرفه السكاكي بقوله: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخصّ المشبه به». (السكاكي، د.ت: ١٧٤)

مظاهر الاستعارات في الكلام النبوي:

الاستعارة التصريحية

أ- المجردة

الاستعارة التصريحية المجردة هي ما استعير فيها لفظ المشبه به للمشبه. وهذا ما ذهب إليه السكاكي عند تعريفه للاستعارة المصرّح بها، حيث قال: « والمراد بالأوّل- الاستعارة المصرّح بها-هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبهبه». (المصدر نفسه: ١٧٤)

ومن شواهد الاستعارة التصريحية ما يلي:

١- قال النبي(ص) لرجلٍ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! وهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»؟ (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٦/١)

الحصائد: جمع الحصيدة وهي ما يحصد من الزرع، شبّه اللّسان وما يقتطع به من القول بحدّ المنجل وما يقطع به من النبات. قال الطَّيْبِيّ مبيّناً الاستعارة في كلمة "**الحصائد**" وقرينة هذه الاستعارة: «"**الحصائد**": جمع حصيدة، فعيلة بمعنى مفعولة، من حصد، إذا قطع الزّرع وهذا من إضافة اسم المفعول إلى فاعله، أي: محصودات الألسنة، فشبّه ما تكلّم به اللسان بالزرع المحصود بالمنجل، فكما أن المنجل يقطع ولا يميّز بين الرطب واليابس، والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس يتكلّم بكلّ نوع من الكلام القبيح والحسن، ثم حذف المشبه وأقيم المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة المصرحة، وجعل الإضافة قرينة لها». (الطيبي، ١٤٠٥هـ: ٤٨٨/٢)

لعلّ سائلا يسأل: ما المناسبة أو ما وجه الشبه بين اللسان والمنجل؟ لأنّ الظاهر أنّ هذا التشبيه ليس تشبيها حسنا لغموض وجه شبهه. والجواب كما يبدو أنّ في تشبيه اللسان بالمنجل حكمة نبوية شريفة، وهي أنّه لا يحصد بالمنجل إلاّ الزرع الذى نضج وآن حصاده، وحان الانتفاع بثمره، فإذا حصد الزرع قبل نضجه فإنّ صاحبه سيلحقه الضرر، وأمّا إذا حصد بعد نضجه فإنّ صاحبه سينتفع وينفع الناس به؛ وكذلك الكلام إذا قيل قبل نضجه بالفكر فهو غير ناضج ويعود على صاحبه بالضرر، وأمّا إذا قيل بعد هضمه بالتفكر والتعقل والاطمئنان من نفعه فإنّه سيعود على قائله بالنفع وعلى الآخرين بالفائدة. وهذا يعنى أنّ الرسول الأعظم(ص) يأمرنا بهذا الحديث البليغ أن نفكّر ثمّ نتكلم، لا أن نتكلم ثمّ نفكّر.

٢- قال رسول الله(ص): «**لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كان مُوسَى حَيّاً مَا وَسِعَهُ إلاَّ اتِّبَاعِي**». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٦٣/١)

قال الطَّيْبِيّ: «في بيضاء استعارة لسطوع براهين هذه الملّة المستقيمة، ووضوح دلائلها القويمة، مما له بياض ونقاوة». (الطيبي، ١٤٠٥هـ: ٦٤٦/٢)

الاستعارة في الحديث الشريف هي مصرّحة، والمستعار له هو الشريعة الإسلامية ذات البراهين الساطعة، والمستعار منه هو الشيء الأبيض، والجامع هو الوضوح. واستعارة البيضاء وهي من المعاني الانتزاعية للبراهين أمر لتقريب المعنى إلى ذهن المتلقي، لأنّ البراهين لا تتمتع بلون ولا تسطع عادة، بل الأثر الغائي منها يسطع الطريق

ويظهرها أمام المرء، ويمهّد السبيل له ويخرجه من الظلمات إلى النور، كما يخرج الضوء والشيء الساطع المرء من الجهل إلى العلم. استعار النبي(ص) في هذا الحديث الشريف اللون لبيان ما ينوي من المعنى، فهو حسب الاستعارة الجديدة استخدم الاستعارة "الاستبدالية" لمجرد وضع كلمة بدل كلمة أخرى؛ والكلمة الأولى و البدل هو البيضاء، و المبدل منه الشريعة الإسلامية ذات البراهين الساطعة، فجاء اللون بدلا عن صفة المبدل منه، و المستعار له و هو الشريعة، لأنه لا يمكن أن تستعار البيضاء للشريعة مباشرة.

ب- التبعية

الاستعارة التبعية هي التي يكون فيها اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسماً مشتقاً، أو فعلاً، أو حرفاً. فقد عرفها السكاكي بقوله: «هي ما تقع في غير أسماء الأجناس كالأفعال، والصفات المشتقة منها، والحروف بناء على دعوى أن الاستعارة تعتمد التشبيه، والتشبيه يعتمد كون المشبه موصوفاً، والأفعال والصفات المشتقة منها مصادرها وفي الحروف متعلقات معانيها، فتقع، الاستعارة هناك ثم تسري فيها». (السكاكي، د.ت:١٨٠) ومن تعريف السكاكي اقتبس البلاغيون تعريفهم لهذه الاستعارة. (الخطيب القزويني، التخليص، د.ت:٣١٤؛ والإيضاح، ١٤٠٣: ٢/ ٣٢٩؛ الجرجاني،١٩٨٢م:٢٢١) ومن أمثلتها في الكلام النبوي ما يلي:

١- قال رسول الله(ص): «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ**». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٤٠١/٣)

حول قوله(ص): «**دَبَّ إِلَيْكُمْ**» جاء في "النهاية": «نقل الداء من الاجسام إلى المعاني، و من أمر الدنيا إلى أمر الآخرة». (ابن كثير،١٩٩٥م: ٢/ ١٤٢-١٤٣)

الدبّ يستعمل في الأجسام، فاستعير للسراية على سبيل التبعية، حيث أجريت الاستعارة في المصدر أوّلا، ثمّ اشتق من الدبّ الفعل «**دبّ**»، فأصبحت الاستعارة التصريحية التبعية؛ أي انتقلت إليكم ونفذ فيكم داء الأمم السالفة، كما تدبّ الدّابة على الأرض هوناً دون أن تلفت الأنظار إلى نفسها، هكذا نفذ فيكم مرض الكفر والإلحاد دون أن تكترثوا لهذا الأمر. استعار النبي (ص) فعل الدابة لأمر آخر ليظهر غفلة المؤمنين بالنسبة لما يجرى حولهم من القضايا التى لا يلتفت إليها المؤمنون.

٢- قال النبي(ص): «**إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ**». (الخطيب التبريزى،١٤٠٥هـ: ١٤٠١/٣) قال الشريف الرضي: «إنّ الأكل هنا استعارة لعدم القبول، وإنّ تلك الحسنات الصادرة عنه مردودة عليه، وليست بثابتة في ديوان الأعمال الصالحة حتّى تحبط، كمن صلّى بدار مغصوبة، ولهذا يحسن وجه التشبيه بالنّار، فإنّ النّار عند اشتعالها والتهابها لا تترك من الوقود شيئاً إلاّ أَفنَتْه، فشبهت الأعمال الصادرة عنه عند ارتكاب الحسد بالحطب الجزل الذي تشتعل فيه النار في الإفناء والإعدام مبالغة وزجراً للحاسد.» (الشريف الرضي،١٣٩١هـ: ١٥٣)

فالأكل في النار أيضاً استعارة؛ يلاحظ أن الاستعارة في «**يأكُلُ الحَسَنَاتِ**» تصريحية تبعية، ونحوها في «**تَأْكُلُ النَّارُ**»، فالمستعار له هو«تمحو» أو «ترفض» المحذوف. وكما أنّ أكل الشيء يغيبه عن النظر هكذا محوه يبعده عن العيون. يشير(ص) إلى أنّ الحسد يمحو حسنات المرء كما تمحو النار الحطب. وبلاغة الاستعارة تكمن في أنّ قوة الزوال عند الحسد تعادل قوة النار عند الاحتراق. يلاحظ أنّ استخدام الاستعارة التبعية تظهر استمرار عمل إمحاء الحسنات بالنظر إلى معنى الفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار في برهة من الزمن. وفي هذا الحديث الشريف باستعارتيه موعظة حسنة بمحاربة صفة الحسد التي يمكن أن يتصف بها كلّ إنسان، وذلک حفاظا على الاستفادة من ثواب الأعمال الصالحة الحسنة ولئلاّ تذهب بعد جهد جهيد هباءً منثوراً. وفي هذا موعظة أيّ موعظة.

الاستعارة المكنية

هي ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه. وهذا المفهوم قريب من كلام فخر الدين الرازي الذي عرف الاستعارة بالكناية بقوله: «هذا إنما يكون إذا لم يصرح بذكر المستعار، بل ذكر بعض لوازمه تنبيهاً به عليه». (الرازي، ١٩٨٥م: ١٢٤-١٢٥) ومذهب الجمهور إنها: «لفظ المشبه به المستعار في النفس للمشبه المحذوف المرموز إليه بإثبات لازمه للمشبه». (البيومي، ١٩٧٢م: ١٨٠-١٨١) يلاحظ أنّ الجمهور اشترطوا إثبات لازم المشبه به للمشبه، وهذا ما لم يذكره الفخر في تعريفه لهذه الاستعارة. (وقد ذكر الفخر الرازي الاستعارة التخييلية في كتابه "نهاية الإيجاز" : ١١٥-١١٦). والاستعارة هذه هي التي يسمّى قسم منها في الاستعارة الحديثة بالاستعارة التجسيمية وشرحها كما يلي: يعد الفيلسوف

الإيطالي جيامباتستا الذي عاش في القرن الثامن عشر، من أوائل الذين لاحظوا مثل هذه الاستعارات، وبين أنّ القسم الأكبر من التعبيرات التي ترجع إلى أشياء غير الحية في اللغة تؤخذ بواسطة التحويل، والانتقال من الجسم الإنساني وأجزائه، ومن الحواس والعواطف الإنسانية، مثال ذلك:«جانب الجبل، وفم النهر، وقلب المدينة، وقلب المشكلة، ويد الساعة، وساق الشجرة. وثمة تحولات في الاتجاه المقابل؛ لأنّ الكثير من أعضاء الإنسان تطبق على الجمادات، نحو: تفاحة آدم، ولسان البحر، وعنق الزجاجة، وطبلة الأذن. وجسم الإنسان مركز قوي للتوسع الاستعاري، إذ يعدّ قطاعا من القطاعات البارزة التي تنتقل الكلمات منها وإليها، أو هو مركز من الانتشار والجاذبية.» (أبو العدّوس، ١٩٩٧م: ١٧)

ويجوز عند البعض أن تكون بعض صور الاستعارات المكنية من باب المجاز العقلي أيضاً، وهذا يخالف السكاكي الذي يقول عند خاتمه فصل المجاز العقلي: «هذا كلّه تقرير للكلام في هذا الفصل بحسب رأي الأصحاب من تقسيم المجاز إلى لغوي وعقلي، وإلاّ فالذي عندي هو نظم هذا النوع في سلك الاستعارة بالكناية». (أبوموسى، د.ت: ٣٠٢) فالسكاكي ينكر المجاز العقلي، ويصنفه في مبحث الاستعارة بالكناية، بينما يثبت عبدالقاهر بين المجاز العقلي والاستعارة المكنية، ولعلّ سبب ذلك أن الاستعارة المكنية تلتبس بالمجاز العقلي، ولذلك «رأينا السكاكي يدخل صوره في الاستعارة المكنية». (السكاكي، د.ت: ١٨٩) كذلك نجد الخطيب- وقد فرق بين المجاز العقلي والاستعارة المكنية- يعتبر أن الاستعارة المكنية تشتمل على المجاز العقلي كما يظهر من حديثه في علم البيان. وقد جعلنا الحديث عن الاستعارة المكنية في ثلاث فقرات نتناول أمثلة من هذه الاستعارة، وأمثلة لالتباسها بالمجاز العقلي، وأمثلة لقرينتها "الاستعارة التخييلية". وهذا أول هذه الفقرات:

أ- الاستعارة المكنية

١- عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله(ص): «**كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كانتْ عَلَيكَ أُمَرَاءُ يُمِيتُونَ الصَّلاَةَ- أَوْ قال: يُؤَخِّرُونَ**»؟ (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١/١٩٠) شبّه(ص) إضاعة الصلاة وتأخيرها عن وقتها بجيفة ميّت تنفّر عنها الطباع، كما شبّه المحافظة عليها وأداءها في وقت اختيارها بذي حياة له نضارة وطراوة في عنفوان شبابه، ثم أخرجها مخرج الاستعارة، وجعل القرينة قوله: «**يُمِيتُونَ**»، لأنه لازم المشبه به. ففيها استعارة مكنية. فكما لا يفيد الميّت

الآخرين شيئاً ولا يستفيد نفسه، لا تفيد إضاعة الصلاة وتأخيرها صاحبها. وتجدر الإشارة إلى أنّ الصلاة لا تموت بل الـــميّت هو الذي لا يعتني بالصلاة ويرزيها ولا يؤدّي حقّها.

٢- قال الرسول الأعظم(ص):«**فإنّي أرجُو ألاّ يطلُعَ إلينا نقابَها**».(الشريف الرضي،١٣٩١هـــ: ٣١) قال رسول الله(ص) هذا الـــحديث الشريف حين تذاكر الناس عنده أمر مرض الطاعون، وانتشاره في الأمصار والأرياف. وفاعل الفعل (يطلع) ضمير مستتر يعود إلى الطاعون، والنقابُ جمع(النقب): الطريق في الـــجبل، والضمير الـــمجرور في (نقابها) يعود إلى الـــمدينة. واستناداً إلى هذا يكون الـــمعنى (إني أرجو أن لا يطويَ هذا الـــجيش طرقَ الـــمدينة الصعبة فيصل إلينا.) أي: إنّي أرجو أن يرفع الله تعالى هذا الـــمرض فلا يصل إلينا. وفي هذا الـــحديث الشريف استعارة مكنية: حيث شبّه الطاعون بالـــجيش الـــمغير، ثمّ حذف الـــمشبه به، وذكر لازم من لوازمه، وهو طلوع النقاب، أي: طي الطريق؛ ثمّ نسب هذا اللازم للمشبّه، أي نسبة طلوع النقاب للطاعون على سبيل الاستعارة الـــمكنية. وفي هذه النسبة استعارة تخييلية.

ب- من صور التباس الاستعارة الـــمكنية بالـــمجاز العقلي

١- عن أبي ذر قال: كان رسول الله(ص) يقول في صلاته: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِن خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا تَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُ لَكَ لِما تَعْلَمُ**». (الـــخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـــ: ٣٠١/١)

قوله(ص): «**لساناً صادقاً**»: إسناد (**صادقاً**) إلى الضمير الـــمجازي، لأن الصدق من صفة صاحبه، فأسند إلى الآلة مبالغة. كما «أسند وضع الأوزار إلى الـــحرب في قوله: ﴿**حتّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ [محمد:٤] وهو للمحارب». (الزمخشري، ١٤٠٦هـــ: ٣١٧/٤) ويجوز أن تكون استعارة مكنية، بأن شبّه اللّسان بمن ينطق بالصدق لكثرة صدوره عنه، ثم أدخل اللسان على سبيل الادعاء مبالغة في جنس الـــمشبه به، وخيّل أنه هو، ثم أثبت للمستعار له ما يلازم الـــمشبه به من الصدق، ونسب إليه ليكون قرينة مانعة من إرادة الـــحقيقة.

٢- قال رسول الله(ص): «**شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ**». (الـــخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـــ: ٥٨٦/١)

قال التّوربشتي: «الشحّ بخل مع الحرص، فهو أبلغ في المنع من البخل، فالبخل يستعمل في الضنة بالمال، والشح في سائر ما تمتنع النفس عن الاسترسال فيه من بذل مال أو معروف أو طاعة. والهلع: أفحش الجزع، وهلع- بالكسر- فهو هلع وهلوع، ومعناه، أنه يجزع في شحّه أشدّ الجزع على استخراج الحق منه». (الزمخشري، ١٤٠٦هـ: ٦١٢/٤) وقوله: «**شُحٌّ هَالِعٌ**»، أي: ذو هلع، كما يقال: يوم عاصف، وليل نائم، ويحتمل أيضاً أن يقول: «**هَالِعٌ**» لمكان «**خَالِعٌ**» للازدواج. ويحتمل أن يحمل على الإسناد المجازي، فيسند الشحّ إلى صاحبه مبالغة، وعلى الاستعارة المكنية، بأن يشبه الشحّ بإنسان، ثم يوصف بما يلازم الإنسان من الهلع، والهلع ما فسّره الله تعالى، وهو: ﴿**إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ [المعارج: ٢٠،٢١]

حول قوله(ص): «**جُبْنٌ خَالِعٌ**»،جاء في (النهاية): «أي: شديد كأنّه يخلع فؤاده من شدة خوفه، وهو مجاز في الخلع؛ والمراد به: ما يعرض من نوازع الأفكار وضعف القلب عند الخوف». (ابن كثير، ١٩٩٥م: ٦٥/٢) وفيه الاستعارة بالكناية حيث شبه الجبن بالمرء الذي يخلع، ثم حذف المشبه به وأشير إليه بلازمه وهو الخالع منسوباً إلى المشبّه.

ج- الاستعارة التخييلية

الاستعارة التخييلية هي إثبات لازم المشبه به المحذوف للمشبه، وتكون قرينة للاستعارة المكنية. وهذا ما عليه جمهور البلاغيين، فهما متلازمتان، لا توجد إحداهما بدون أخرى، إذ لابدّ للاستعارة من قرينة. قال الخطيب القزويني: «قد يضمر التشبيه في النفس، فلا يصرّح بشيء من أركانه سوى المشبه، ويدلّ عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، فيسمّى التشبيه استعارة بالكناية، أو مكنياً عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية». (الخطيب القزويني،التخليص، د.ت: ٣٢٦؛ الإيضاح، ١٤٠٣: ٤٤٤/٢) وقد علّق السّبكي على كلام الخطيب بقوله:« وعلم منه أن الاستعارة بالكناية لا توجد دون الاستعارة التخييلية، وأمّا عكسه فظاهر كلام المصنف أنّه كذلك، فلا توجد التخييلية دون المكنية». (شروح التخليص (عروس الأفراح، د.ت: ١٥٣/٤-١٥٤) وقال التفتازاني: «الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية فعلان من أفعال المتكلم متلازمتان، إذ التخييلية يجب أن تكون قرينة للمكنية البتة، والمكنية يجب أن تكون قرينتها تخييلية البتة». (التفتازاني، ١٤٢٥هـ: ١٥٦-١٥٧)

وفي ما يلي شواهد للاستعارة التخييلية في الكلام النبوي:

١- قال رسول الله(ص): «**ثَلاَثٌ مَن كُنَّ فيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوةَ الإِيْمَانِ، مَن كَانَ اللهُ وَ رَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُمَا، وَمَن أَحَبَّ عَبْدَاً لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَمَن يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقى فِي النَّارِ**». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١/١٠-١١) «**حَلاَوةَ الإِيْمَانِ**»: استعارة، شبهت شدة رغبة المؤمن في إيمانه بشيء ذي حلاوة، وأثبت للإيمان لازم ذلك الشي، وأضيف له على التخييلية. ليس للإيمان حلاوة، بل الحلاوة تكمن وراء الإيمان ونتيجته، المستعارمنه وهو الشيء الحلو والمستعار له وهو الإيمان يشتركان في صفة الحلاوة لكنها حقيقي في الشيء الحلو ومعنوى وغير محسوس في الإيمان.

٢- قال(ص) لأبي ذر: «... **أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ**». (المصدر نفسه، ١٤٠٥هـ: ١/ ١٦)

قوله(ص): «**الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ**»: أصله تذهب الخطيئة، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود:١١٤] ثم في الدّرجة الثانية تمحو الخطيئة لقوله(ص) لأبي ذر: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا.**» (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١٤٠٩/٣)، فلما وضع الخطيئة موضع النار على الاستعارة المكنية أثبت لها على سبيل الاستعارة التخييلية ما يلازم النار من الإطفاء ليكون قرينة مانعة لها من إرادة الحقيقة من الخطئية.

الاستعارة المرشحة

هي التي ذكر معها ما يلائم المستعار منه، وهذا هو الذي يقوي ويرشّح الاستعارة والمعنى المنطوي فيها. ومن أمثلة هذه الاستعارة في الكلام النبوى ما يلي:

١- قال رسول الله(ص): «**مَنْ عَادَ مَرِيضَاً، لَمْ يَزَلْ يَخُوضُ الرَّحْمَةَ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ اغْتَمَسَ فِيهَا**». (المصدر نفسه: ٤٩٧/١) قوله(ص): «**يَخُوضُ الرَّحْمَةَ**» شبّه الرحمة بالماء، إمّا في الطهارة، أو في الشيوع والشمول، ثم نسب إليها ما هو منسوب إلى المشبه به ، من الخوض، ثم عقّب الاستعارة بالانغماس ترشيحاً. تعتبر الغمس من ملائم الخوض، كأنّه(ص) يريد أن يشير إلى أنّ الرّحمة الإلهية تشمل المرء تماماً حين مرضه والمرض هذا يجلب له الرّحمة الإلهية و من مظاهر هذه الرّحمة هو الغفران. كما يقال إنّ كلّ مرض يصاب به مؤمن يؤدي إلى غفران خطاياه، إن كانت الخطايا مما تغفر.

٢- كان للنبي(ص) حَادٍ يقال له: أَنْجَشَةُ، وكان حَسَنَ الصَّوتِ. فقال له النبي(ص): «**رُوَيْدَكَ يا أَنْجَشَةُ، لاَ تَكْسِرِ القَوارِيرَ**». قال قتادة :«يعني ضعفة النساء» (المصدر نفسه: ١٣٥٥/٣)

قال ابن الأثير: «قوله: (**القَوارِيرَ**) أراد به النساء، شبّهَهُنّ بالقوارير من الزّجاج، لأنه يسرع إليها الكسر، وكان أنجشةُ يحدو وينشد القريض والرّجز. فلم يأمن أن يصيبهن، أو يقع في قلوبهن حداؤه، فأمر بالكفّ عن ذلك. وفي المثل: «الغِنَاء رُقْيَةُ الزِّنَا». وقيل: أراد أن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واشتدّت به، فأزعجت الرّاكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك، لأنّ النّساء يضعفن عن شدة الحركة. وواحدة القوارير: قارورة، سمّيت بها لاستقرار الشراب فيها». (ابن الأثير، د.ت: ٣٩/٤) فالقوارير: استعارة، لأن المشبه أي النّساء، غير مذكور، والقرينة حالية لا مقالية، والكسر ترشيح لها.

الاستعارة المجردة

التجريد عند البلاغيين هو ذكر ما يلائم المستعار له، وهذه الاستعارة قيمتها أقل من الترشيحية. (الرّازي، ١٩٨٥م: ١٢٤) وقد وجدنا التجريد في مواضع قليلة في الحديث النبوي منها:

- عن جرير بن عبدالله قال: رأيت رسول الله(ص) يلوي ناصية فرسٍ بإصبعه، وهو يقول: «**الخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَواصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ: الأَجْرُ والغَنِيمَةُ**».(الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١١٣٦/٢؛ الشريف الرضي، ١٣٩١هـ: ٤٩)

حول قوله(ص): (**مَعْقُودٌ**) : جاء في "النهاية": «أي: ملازم لها كأنّه معقود فيها. ويجوز أن يكون الخير المفسر بالأجر والغنيمة استعارة مكنية، شبّهه لظهوره وملازمته بشيءٍ محسوس معقود بخيل على مكان رفيع، ليكون منظوراً للنّاس ملازماً لنظره، فنسب الخير إلى لازم المشبه به ، و ذكر الناصية تجريداً للاستعارة.» (ابن الأثير، ١٣٨٣هـ: ٢٧١/٣)

الاستعارة اللفظية

قد أشار الشيخ عبد القاهر إلى الاستعارة اللفظية عند ذكره الاستعارة غير المفيدة. (الجرجاني، ١٤٠٣هـ: ٢٩ و٣٤) فذكر أمثلة لها وسمّاها استعارة من طريق **اللفظ**، وأشار إلى أنها تجري بين الأسماء التي تتّحد أجناس مسمّياتها كالشفة للإنسان، والجحفلة للفرس،

والـــمشفر للبعير، ونبّه إلى أن هذه الدقائق في الفروق قد تكون معتبرة في هذا التصرف فتكون استعارة مفيدة كإطلاق الـــمشفر على الشفة الغليظة في مقام الذّم، ثم رجع عنه في آخر كتاب "أسرار البلاغة" فذكر أنه يضن بإطلاق اسم الاستعارة على هذا النوع قائلاً: « واعلم أنّ الواجب كان أن لا أعدّ وضع الشفة موضع الـــجحفلة، والـــجحفلة في مكان الـــمشفر، ونظائره التي قدمت ذكرها في الاستعارة، وأضن باسمها أن يقع عليه، ولكنّي رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات، وعدّوه معدّها، فكرهت التشداد في الـــخلاف، واعتددت به فـــي الـــجملة، ونبّهت على ضعف أمـــره بأن ســـمّيته "استعارة غيـــر مفيدة" ». (الـــمصدر نفسه،١٤٠٣هـــ: ٣٧٣) ثم جاء الزمـــخشري فذكر هذه الاستعارة، ونبّه إلى «أنـــها تدور بين أســـماء الأجناس، و لم يضف إليها شيئاً، لأنّ صورها أثر تصرف لفظي، ليس وراءه اعتبارات بلاغية يراعيها الـــمتكلم، فهي أشبه بالعمل اللغوي منه بالعمل الأدبي». (أبو موسى، د.ت: ٤٢٥) وقد وردت الاستعارات اللفظية في مواضع منها:

- قال رسول الله(ص): «**يَا نِسَاءَ الـــمُسْلِمَاتِ! لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِن شَاةٍ**». (الـــخطيب التبريزي،١٤٠٥هـــ: ٥٩٣/١) الفرسن: عظم قليل اللحم، وهو خفّ البعير كالـــحافر للدابة، و قد يستعار للشاة، فيقال: فرسن شاة. والذي للشاة هو الظِّلفُ. ففيها الاستعارة اللفظية. يـــمكن أنّه(ص) قد شبّه الشاة بالبعير في هذا الـــموضع، حتى يشير إلى أهمية عدم الإهانة ولو كانت قليلا لا تعدّ. الـــجدير بالذكر أنّه تعدّ مـــملكة الـــحيوانات مصدر هامّ من مصادر الاستعارة، وبعض هذه الاستعارات ينطبق على النباتات، أو الأشياء عديمة الـــحسّ والوعي. وعلى الرغم من أنّ الصور الـــحيوانية، من أقدم العناصر في الأسلوب الأدبي، إلاّ أنّها لم تفقد شيئاً من قوتـــها.

الاستعارة التهكمية

مفهوم الاستعارة التّهكمية هو ما نزل فيها التّضاد منـــزلة التناسب لأجل التهكّم والاستهزاء، وقد أطلق الزمخشري على هذا النوع اسم "العكس في الكلام". (أبوموسى، د.ت: ٤٢٦) وهي إحدى صور الاستعارة العنادية عند البلاغيين، ومن أمثلة الاستعارة التّهكمية في الكلام النّبوي ما يلي:

١- جاء في حديث رواه ابن عبّاس عنه(ص)، وهو يتحدث عن كيفية قبض الأرواح: «**فَإِذَا كان الرَّجُلُ السُّوءُ قال: أُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ! كانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ، أُخْرُجِي ذَمِيمَةً، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ**». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١/٥١٠-٥١١) قوله(ص): «**وأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وغَسَّاقٍ**» وضع موضع "**أَنْذِرِي**" على سبيل الاستعارة التهكمية، كقوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [آل عمران: ٢١]حيث استعير(بشّرهم) لـ(أنذرهم). لأنّ تصرفات الكافر لا تليق البشارة ولو أبشرت قد بشرّت على سبيل التهكم والسخرية.

٢- قال النبي(ص): «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِن طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبَعٍ**». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٢/٧٦٢؛ الشريف الرضي، ١٣٩١هـ: ١٦٣)

حول قوله(ص): «**مِن طَمَعٍ يَهْدِي**» قال القاضي: «الهداية الإرشاد إلى الشيء والدلالة عليه، ثم اتّسع فيه فاستعمل بمعنى الإدناء من الشيء والإيصال إليه، والطبع بالتحريك العيب، و أصله الدنس الذي يعرض للسيف؛ والمعنى: أعوذ بالله من طمع يسوقني إلى شين في الدين و ازدراء بالمروءة». (القاري،١٣٩٠هـ: ٥/٢٣٣) وقال الطيبي: «الهداية هنا بمعنى الدّلالة الموصلة إلى البغية وإرادة على سبيل التمثيل، لأنّ الطبع الذي هو بمعنى الرّين مسبّب عن كسب الآثام. قال تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤]». (الطيبي ، ١٤٠٥هـ: ٦/١٩٢)

فالهداية تستعمل عادة لشيءٍ حسن، لكنّ النبي(ص) استعمله في الشرِّ للتهكم والسخرية من الطمّاعين. فاستعمل الهدى فيه على سبيل الاستعارة تهكماً.

٣- قال(ص) مخاطباً قتلى المشركين يومَ بدر، وكانوا قد قذفوا في بئر من آبار بدر: «**يا فُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ! وَيا فُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ! أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ ورَسُولَهُ؟ فَإِنَّا قَدْ وجَدْنَا مَا وعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وجَدتُمْ مَا وعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا**». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٢/١١٦٠- ١١٦١)

حول قوله(ص): «**أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ**» قال صاحب مرقاة المفاتيح: أي: هل تتمنّون أن تكونوا مسلمين بعدما وصلتم إلى عذاب الله». (القاري، ١٣٩٠: ٨/١٠)

ينبغي أن يفسّر هذا بما يترتب عليه قوله: «**فَإِنَّا قَدْ وجَدْنَا**»، لأنّه كالتّعليل له، فالمسرّة ههنا مستعارة لضدها من الحزن والكآبة تهكماً وسخرية. فالمعنى: أتحزنون وتتحسرون على ما فاتكم من طاعة الله ورسوله أم لا؟ وتتذكّرون قولنا لكم: إن الله ربّنا حقاً، وسيظهر دينه على الدين كلّه، وينصر أولياءه، ويخذل أعداءه؟

الاستعارة التمثيلية

الاستعارة التمثيلية تكون في التركيب المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، فإذا اشتهرت الاستعارة التمثيلية سميت **مثلاً**. (المراغي، ١٩٨٤م: ٢٦٦) وربما أطلق عليها لفظ التمثيل، وقد ذكر الخطيب القزويني: أن هذا المجاز يسمّى: «التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد تسمّى التمثيل مطلقاً». (الخطيب القزويني، التخليص، د.ت: ٣٢٣-٣٢٤؛ الإيضاح، ١٤٠٣: ٤٤١/٢) وقال البيومي: «الجمهور على أن المجاز المركب والتمثيل، والاستعارة التمثيلية، والتمثيل على حدّ الاستعارة: ألفاظ مترادفة على معنى واحد». (البيومي، ١٩٧٢م: ١٩٤) وهذا يدلّ على أن الاستعارة التمثيلية لها عدّة أسماء مترادفة، ولكن المختار عندهم هو اسم "التمثيل". ومن شواهد الاستعارة التمثيلة في الكلام النبوي ما يلي:

١- قال رسول الله(ص): «**مَنْ صَامَ يومَاً في سَبِيلِ اللهِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقَاً كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ**». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ٦٣٨/١) قوله:«**خَنْدَقَاً**»: هو استعارة تمثيلية عن الحاجز والمانع، شبّه الصوم بالحصن وجعل له خندقاً حاجزاً بينه وبين النار التي شبهت بالعدوّ، ثم شبّه الخندق في بُعْد غوره بما بين السّماء والأرض. استدلّ النبيّ(ص) بالخندق للإشارة إلى البون البعيد بين الأمرين خاصة إذا كان الخندق ذا بعد كبعد الأرض من السماء. والاستعارة هذه تصور لوحة جميلة لعرض المسافة الشاسعة التى توجد بين الصائم والنّار يوم القيامة ، والأمر هذا إشارة إلى مكانة الصوم عند الله.

٢- قال رسول الله(ص): «**إِنَّمَا مَثَلِي ومَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَومَاً. فَقال: يا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ. وإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيانُ! فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ**». (المصدر نفسه، ١٤٠٥هـ: ٥٣/١)

قال الزمخشري: «**النَّذِيرُ العُرْيانُ**» مثل سائر يضرب لشدة الأمر، ودنوّ المحذور، وبراءة المحذر عن التهمة. وأصله: أنّ الرّجل إذا رأى العدو قد هجم على قومه، وأراد أن يفاجئهم، وكان يخشى لحوقهم قبل لحوقه، تجرد من ثوبه، وجعله على رأس خشبة، وصاح ليحذوا حذوهم، و يستعدوا قبل لحوقهم». (الزمخشري؛ ١٩٧١م: ٤١٢/٢) نرى أن من صور الاستعارة التمثيلية ما أصبحت مثلا سائرا بين الناس.

- ننبّه قبل نهاية هذا البحث إلى أنّه قد ذكر أكثر من وجه لبعض الاستعارات في بعض الأحاديث النبوية، منها:

١- قال رسول الله(ص): «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالحَجُّ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ**». (الخطيب التبريزي، ١٤٠٥هـ: ١/١٠)

قال صاحب التبيان: «لا تخلو هذه الخمس من أن تكون قواعد البيت أو أعمدة الخباء، و ليس الأوّل لكون القواعد على أربع، فيتعين الثاني، وينصره ما جاء في حديث: «**وعَمُودُهُ الصَّلاَةُ**». (المصدر نفسه: ١/١٦) مثّلت حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خباء أقيمت على خمسة أعمدة، وقطبها الذي تدور عليه الأركان هو: «**شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**»، وبقيت شعب الإيمان كالأوتاد للخباء.

وهذا على أن تكون الاستعارة **تمثيلية**، لأنها وقعت في حالتي المثل والممثل به، ويجوز أن تكون الاستعارة **تبعية**، بأن تقدر الاستعارة في (**بُنِيَ**) والقرينة في (**الإسلام**)، شبّه ثبات الإسلام و استقامته على هذه الأركان الخمسة ببناء الخباء على الأعمدة الخمسة، ثم تسري الاستعارة من المصدر إلى الفعل، وأن تكون **مكنية** بأن تكون الاستعارة في (**الإسلام**)، والقرينة في (**بُنِيَ**) على التخييل، بأن يكون شبه الإسلام بالبيت، ثم خيل كأنّه بيت على المبالغة، ثم أطلق الإسلام على ذلك المخيل، ثم خيل له ما يلازم الخباء المشبه به من البناء ثم أثبت له ما هو لازم البيت من البناء على الاستعارة **التخييلية**، ثم نسبت إليه ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة.

٢- قال رسول الله(ص) لأبي ذر: «**يا أَبَاذَر! أَيُّ عُرَى الإِيْمَانِ أَوْثَقُ؟**» قال:الله ورسولُه أعلم. قال: «**المُوالاَةُ في الله، والحُبُّ في الله، والبُغْضُ في الله**». (المصدر نفسه: ٣:/١٣٩٦)

«قوله: «**أَيُّ عُرَى الإِيْمَانِ أَوْثَقُ**»؟ هي جمع عروة، وهي ما تجعل في الأحمال والرواحل، ويجعل بين كل عروتين شظاظ،[٢] فيحمل على البعير، وهي تجوز أن تكون استعارة **مصرحة تحقيقية**.[٣]

شبه الموالاة والحبّ في الله، والبغض في الله، بعروة الراحلة في استيثاقها وإحكامها، فحذف المشبه، وأتى بالمشبه به، مضافاً إلى الإيمان ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة، وأن تكون **مكنيّة** بأن يكون المشبه الإيمان والمشبه به الأحمال، ويتوهّم

الإيـــمان على سبيل **التخييليّة** من لوازم الـــمشبه به، وقرينتها الإضافة إليه، ويجوز أن تكون **تـــمثيليّة** مثل الـــمعلوم بالنظر والاستدلال بالـــمشاهد الـــمحسوس حتّى يتصوره السامع كأنّه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده ويتيقن به.

النتيجة

البحث عن الصور الاستعارية في كلام أفصح من نطق بالضاد واستخراج شواهده والبحث عن الـــمعانى الـــمطوية في طيّات كلامه(ص) أمر ليس سهل الـــمنال فقمنا به على قدر استطاعتنا. وما وصلنا إليه في البحث الـــمتقدم هو:

١- أنّ النبى(ص) استخدم هذا الأسلوب لتقريب كلامه إلى ذهن الـــمستمعين وإبلاغ رسالته إليهم. وكان يستخدم الاستعارة كطريق من الطرق البيانية نظرا إلى نفاذها في الـــمتلقّين وشدّة تأثيرها ودوامها عندهم.

٢- وجدنا أن النبي(ص) كان يستخدم الصور الاستعارية الـــمختلفة حسب حال الـــمخاطبين. وهذا ما يؤدّي إلى أن يقع الكلام في مواقعه.

٣- يبدو أنّ النبيّ(ص) يستخدم الصور البلاغية الـــمتعددة في آنٍ واحد لإيفاد الـــمعنى، وهذا ما يؤدي إلى عرض الصور الـــمتعددة الـــجوانب في حديث واحد، كما شاهدنا في أمثلة عدّة نقلناها في البحث.

٤- لغة الاستعارة الـــمستخدمة من قبل النبي(ص) هي سهلة، والألفاظ رغم سهولتها الظاهرية تنطوي على الـــمعاني البعيدة والتي لا يمكن استخراجها وكشفها إلاّ بعد الغوص فيها والتدقق في زواياها.

٥- كانت استعارات الرسول(ص) موظفة للوعظ والإرشاد والتشويق لقبول ذلك.

الـــهوامش

١- الدسع :الدفع ، الـــمعجم الوسيط،مادة (دسع).

٢- في (الصحاح) مادة شظظ: الشظاظ العود الذي يدخل في عروه الـــجُوالِق . و في (الصحاح) فصل (الـــجيم) من باب (القاف) :(الـــجوالق: بكسر الـــجيم و اللام، و بضم الـــجيم وفتح اللام وكسرها، وعاء».

٣- الاستعارة التحقيقة هي التي تناول أمراً معلوماً يمكن أن ينص عليه و يشار إليه إشارة حسية أو عقلية. (الإيضاح: ٢٠٥)

المصادر

القرآن الكريم

ابن الأثير، ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر**، ت: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، الفجالة، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت.

ـــــــــــــ، **النهاية في غريب الحديث و الأثر** ، ت: طاهر أحمد الزاوي، و محمود محمد الطناحي، لا مكان، دار إحياء الكتب العربية، الطبعةالأولى، ١٣٨٣ هـ.

ابن كثير، **البداية والنهاية** ،بيروت، لبنان،دارالكتب،الطبعة الثالثة، ١٩٩٥م.

ابن منظور الافريقي، جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب، لا مكان**، دار صادر، ١٣٨٨هـ.

أبو زيد البدوي، عبدالرزاق، **في علم البيان**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م.

أبو العدوس، يوسف، **الاستعارة في النقد الأدبي الحديث الأبعاد المعرفية و الجمالية**، المملكة الأردنية، عمان، منشورات الأهلية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

أبو موسى، محمد حسنين، **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى و أثرها في الدراسات البلاغية**، لا مكان، دار الفكر العربي، د.ت.

امرؤالقيس، **الديوان، شرح عبدالرحمن المصطاوي**، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٥هـ.

بدر الدين، محمد بن جمال الدين محمدبن عبد الله بن مالك،**كتاب المصباح في علم المعاني و البيان و البديع**، لا مكان، المطبعة الخيرية، الطبعة الأولى، ١٣٤١ هـ.

البغوي، حسين بن مسعود بن محمد الفراء، **شرح السنة**، ت: شعيب الأرناؤوط و زهير الشاويش، لا مكان، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ.

البيومي، محمد رجب، **البيان النبوي**، بيروت، دارالوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

البيومي، يوسف، **علم البيان**، جامعة الأزهر، مطبعة عابدين بالقاهرة، ١٩٧٢م.

التفتازاني، سعد الدين، **شرح المختصر**، طهران، منشورات اسماعيليان، مطبعة سرور، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ .

التفتازاني، المغربي، السُبكي، القزويني، الدسوقي، **شروح التلخيص**، مصر، مطبعة عيسى ألبابي و شركائه، د.ت.

الجارم، على و أمين، مصطفى، **البلاغة الواضحة**، مصر، مطابع دارالمعارف، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.

الجرجاني، عبدالقاهر، **أسرارالبلاغة**، ت:هـ.ريتر، بيروت، دارالمسيرة، الطبعةالثالثة، ١٤٠٣هـ

ـــــــــــــ، **دلائل الإعجاز**، ت: السيد محمد رشيد رضا، لا مكان، دارالمعرفة، ١٣٩٨ هـ.

الجرجاني، محمد بن علي، **الإشارات و التنبيهات في علم البلاغة**، ت: عبدالقادر حسين، الفجالة، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٨٢م.

الجندي، علي، **فن التشبيه**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٨٦ هـ.

الـــخطيب التبريزي، محمد بن عبدالله، **مشكاة الـــمصابيح**، ت: محمدناصر الدين الألباني، لا مكان، الـــمكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـــ.

الـــخطيب القزويني ، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ت: د. عبدالـــمنعم خفاجي، بيروت، دارالكتاب اللبناني، الطبعة الـــخامسة، ١٤٠٣هـــ.

ـــــــــــــ، **التلخيص في علوم البلاغة**، ت: عبدالرحمن البرقوقي، لا مكان، دار الفكر العربي، دون تاريخ.

الرازي، فخر الدين ،**نهاية الإيـــجاز في دراية الإعجاز**، ت: د. إبراهيم السامرائي، و محمد بركات حمدي أبو علي، الأردن، عمان، دار الفكر للنشرو التوزيع ، ١٩٨٥ م.

الرافعي،أحمد بن محمد بن علي الـــمقري الفيومي، **الـــمصباح الـــمنير في غريب الشرح الكبير**، بيروت، الـــمكتبة العلمية، دون تاريخ.

الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، ت: عبدالرحيم محمود، بيروت، دار الـــمعرفة، ١٤٠٢هـــ.

ـــــــــــــ، **الفائق في غريب الـــحديث**، ت: علي محمد البجاوي،لا مكان، مصر، نشر عيسى البابي الـــحلبي و شركائه، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

ـــــــــــــ، **الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل** ت: مصطفى حسين أحمد، بيروت، دارالكتاب العربي، ١٤٠٦ هـــ.

السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد، **مفتاح العلوم**، بيروت، الـــمكتبة العلمية الـــجديدة، د.ت

سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، ت: عبدالسلام هارون، القاهرة، الهيئة الـــمصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

السيوطي، جلال الدين محمد، **الإتقان في علوم القرآن**، القاهرة، شركة و مطبعة مصطفى البابي الـــحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨ هـــ.

ـــــــــــــ، **شرح عقود الـــجمان في الـــمعاني و البيان**، مصر، مطبعة مصطفي البابي الـــحلبي و أولاده، ١٣٥٨هـــ.

الشريف الرضي، محمد بن حسين، **الـــمجازات النبوية**، ت: طه عبد الرؤوف سعد، مصر، شركة مصطفى البابي الـــحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٩١ هـــ.

الصباغ، محمد، **التصوير الفنّي في الـــحديث النبوي**، لا مكان، الـــمكتب الإسلامي، الطبعة الأولى،١٩٨٣م.

طبانة، بدوي؛ **علم البيان**، بيروت، دار الثقافة، ١٤٠١ هـــ.

ـــــــــــــ، **معجم البلاغة العربية**، جدة، دار الـــمنارة ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـــ.

الطِّيبِيّ، الـــحسين بن عبدالله، **الـــخلاصة في أصول الـــحديث**، ت: صبحي السامرائي، لا مكان، عالـــم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـــ.

ـــــــــــــــ، **شرح الطِّيبيّ على مشكاة المصابيح المسمّى بالكاشف عن حقائق السنن**، تحقيق عبدالحميد هنداوي، الطبعة الثانية، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥ هـ.

عبد العزيز بن عبد السلام، عز الدين، **كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز**، بيروت، دارالمعرفة، ١٣١٣ هـ.

عتيق، عبدالعزيز، **علم البيان**، لا مكان، دار النهضة العربية، ١٩٧٤م.

العلوي، يحيي بن حمزة؛، **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

العماري، علي، **البيان**، القاهرة، مكتبة الجامعة الأزهرية، د.ت.

القاري، علي بن سلطان محمد، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، باكستان، المكتبة الإمدادية، ١٣٩٠ هـ.

القيرواني، الحسن ابن رشيق، **العمدة في صناعة الشعر و نقده**، ت:مفيد محمد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

الكاندهلوي،محمد إدريس؛ **التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح**، مكة المكرمة، مكتبة مدينة العلم، الطبعة الثانية، ١٣٥٤ هـ.

المراغي، أحمد مصطفى، **علوم البلاغة (البيان– المعاني– البديع)**، بيروت، دارالقلم، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، رتبه و نظمه لفيف من المستشرقين، و نشره الدكتور أ.ي. و نسنك، استانبول، دار الدعوة ، ١٩٨٦م.

المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، و حامد عبد القادر، ومحمد علي النجار، مراجعة إبراهيم أنيس، و عبد الحليم منتصر، و عطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد، قطر، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٨٥م.

الهاشمي، أحمد، **جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان**، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

الهروي ، **غريب الحديث** ،بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٩٧م.